

ملف القدس

جمال جمعة*

الجدار وتهويد القدس

مقدمة

مع انطلاقة انتفاضة الأقصى في سنة ٢٠٠٠، ثم تولي شارون رئاسة الحكومة الإسرائيلية في سنة ٢٠٠١، تداعت الحركة الصهيونية بجميع خبراءها ومفكرها وعلمائها إلى عقد اجتماع في مدينة هيرتسليا الإسرائيلية لتدارس مستقبل دولة الاحتلال حتى سنة ٢٠٢٥ من كل النواحي الديموغرافية والسياسية والعسكرية والاقتصادية وغيرها، وعلى مستويات متعددة بإشراف حكومة الاحتلال. وضم الاجتماع أكثر من ٣٠٠ عالم وخبير حكومي ونقابي وسياسي وعسكري واقتصادي، علاوة على ممثلين عن جميع الأحزاب السياسية في دولة الاحتلال، وعن المؤسسات اليهودية العالمية مثل أيباك والوكالة اليهودية وغيرهما.

وكانت نتيجة هذا الاجتماع أولاً إقراره كاجتماع سنوي، وثانياً طلب من العلماء الصهيونيين تقديم أوراق علمية خلال عام أو عامين على الأكثر إلى سائر الحضور توضح الفرص والمخاطر التي ستواجهها دولة الاحتلال في الـ ٢٥ عاماً المقبلة. وفي سنة ٢٠٠٣ كانت أغلبية هذه الأوراق قدمت،

(*) منسق الحملة الشعبية لمقاومة الجدار والاستيطان.

(١) لمزيد من التفاصيل بشأن الخطط والمخططات، يرجى مراجعة الموقع الإلكتروني لمؤتمر هيرتسليا الرسمي، وكذلك الأوراق والدراسات المنشورة فيه خلال الفترة ٢٠٠٥ - ٢٠٠٦: <http://www.herzliyaconference.org/Eng>

(٢) المصدر نفسه.

وكان أهمها موضوع الخطر الديموغرافي الفلسطيني على أرض فلسطين التاريخية كلها، فقد أوضحت دراسة أرنون سوفر، أكبر علماء الديموغرافيا الصهيونيين، أن عدد "غير اليهود" في جميع فلسطين التاريخية، وبمعدلات النمو الحالية، سيصل إلى ٦٠٪ في سنة ٢٠٢٥، واليهود إلى أقلية تشكل ٤٠٪ من السكان فقط.

وفور نشر هذه الدراسات بدأت الحكومة الإسرائيلية بتطوير رؤية استراتيجية تهويدية لها في المنطقة، ومن ثم صوغها على شكل أربع خطط رئيسية نُشرت جميعها في سنة ٢٠٠٥، وهذه الخطط هي:

- ١ - مخطط تطوير الجليل.
- ٢ - مخطط تطوير النقب.
- ٣ - مخطط القدس اليهودية الكبرى.
- ٤ - خطة الانفصال الأحادية الجانب عن الضفة والقطاع.

إن هدف هذه الخطط هو الحفاظ على التفوق اليهودي في فلسطين التاريخية بنسبة ٧٠٪ يهوداً و٣٠٪ "غير يهود"، عدا تفوقهم في القطاع الاقتصادي والسياسي والتعليمي والخدماتي وغير ذلك من القطاعات. فعلى سبيل المثال، سيتم خفض نسبة الفلسطينيين في الجليل من ٥٢٪ حالياً إلى ٣٨٪، وفي القدس من ٣٢٪ في سنة ٢٠٠٥ إلى ٨٪ في سنة ٢٠٢٥، عدا مضاعفة عدد اليهود في النقب وتدمير مناطق الضفة والقطاع بحيث يلجأ سكانها إلى ما يسمى "الهجرة الطوعية"^(٢).

خارج المدينة، وضمّت أحياء يهودية من القدس الغربية إليها، إضافة إلى بعض الأحياء والقرى الفلسطينية وكثير من الأراضي الخالية. إعلان البلدية هذا قلّص حجم المساحة الفلسطينية المحتلة منذ سنة ١٩٦٧ من القدس إلى ١٦٪ فقط من مجمل المدينة في مقابل ٨٤٪ للأحياء اليهودية من القدس الغربية. ثم بدأت هذه البلدية بإطلاق مخططات هيكلية للقدس تحدد أماكن البناء والأراضي الخضراء وأراضي الدولة داخل المدينة. بالتالي، فإن هذه المخططات الهيكلية قلّصت المساحة الممنوحة للبناء الفلسطيني، وحددتها بـ ١٤٪ فقط من أراضي القدس البالغ مساحتها ١٢٣ كم^٢. وفي المرحلة الثانية أُطلق العديد من المخططات الاستيطانية للقدس وما حولها، وجرى تكثيف هذه الخطط بعد انهيار الاتحاد السوفياتي في سنة ١٩٩٢، وما لحقه من استجلاب ملايين اليهود الروس والأثيوبيين وغيرهم من الجنسيات الأخرى إلى البلد، وتوطين أعداد كبيرة منهم في مستعمرات القدس والضفة، إذ أظهرت الدراسات أن نحو ٥٥٪ من المستوطنين قدموا إلى البلد بعد سنة ١٩٩٢، وبالتالي بدأ الحديث عمّا يسمى القدس المتروبوليتانية كي يشمل أراضي تبلغ مساحتها ٨٤٠ كم^٢، أو ما يعادل ١٥٪ من مساحة الضفة الغربية، ويشمل أيضاً المدينة بحدود بلدية القدس وبعض المناطق المحيطة بها، بما فيها المستعمرات حول القدس الشرقية والغربية. وكان الغرض من هذا المصطلح الجديد ضم المستعمرات وبنيتها التحتية من شوارع وخدمات إلى منطقة نفوذ بلدية القدس كي تكون هذه الأخيرة هي المشرفة على خطط تهويد المدينة كافة.

وعلى الرغم من هذه الخطط والمشاريع كلها منذ سنة ١٩٦٧ حتى سنة ٢٠٠٥، فإن نسبة الفلسطينيين في القدس استمرت في الازدياد في مقابل الوجود اليهودي في المدينة، إذ ارتفعت من ٣٠٪ تقريباً في سنة ١٩٩٥، إلى ٣٢٪ في سنة ٢٠٠٥، إلى ٣٥٪ في سنة ٢٠٠٨، ومن المتوقع أن

وجاءت خطة تهويد القدس القطرية ضمن مجموعة دراسات ومخططات لمختلف القطاعات على مستوى فلسطين التاريخية، منها فيما يخص القدس: خطط توسع استيطانية جديدة قديمة؛ الجدار حول القدس؛ خطط تنمية القدس "اليهودية"؛ خطط الاستيطان السياحي؛ خطط أخرى لها علاقة بالتعليم والصحة والخدمات والاقتصاد وغيرها. وأهم هذه المخططات مخطط إسرائيل لسنة ٢٠٢٠ الخاص ببلدية القدس المحتلة، والذي جاء في مجلد من ٩٠٠٠ صفحة.

وُضعت هذه الخطط كلها كي يتكامل بعضها مع بعض من أجل تحقيق غايتين أساسيتين: الأولى، تهويد القدس بزيادة حجم الوجود اليهودي الدائم والموقت فيها وإضفاء الصبغة اليهودية عليها؛ الثانية زيادة نسبة اليهود العلمانيين في مقابل المتدينين في القدس، الأمر الذي يخفض كاهل التزامات دولة الاحتلال وبلديتها تجاه هؤلاء اليهود المتدينين الذين لا يمارسون أي أعمال تجارية أو وظيفية تعود على الدولة والبلدية بأرباح أو ضرائب. وسيتم التركيز في هذه الورقة على مخطط القدس اليهودية الكبرى ودور جدار الفصل العنصري فيه.

جدار الفصل العنصري حول القدس

إن أحد أهم جوانب الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي هو مدينة القدس بما تمثله من مركز ثقل سياسي وديني واقتصادي واجتماعي، ولذلك كانت القدس، وما زالت، موجودة في جميع المخططات الاحتلالية الصهيونية منذ ما قبل بداية الانتداب البريطاني إلى يومنا الحالي. لكن بعد هزيمة ١٩٦٧، اتخذت هذه الخطط والمخططات منحى أكثر تطرفاً وعنفاً في اتجاه التطهير العرقي للفلسطينيين المقدسيين وإحلال اليهود محلهم. بداية هذه الخطوات كانت تمهيد مفهوم القدس في الوعي الفلسطيني والعربي والإسلامي والدولي عن طريق إعلان ما يسمى بلدية القدس، ورسم حدود لها حول القدس عُزل بسببها كثير من قرى القدس

تصل إلى ٤٠٪ في سنة ٢٠٢٥، وإلى نحو ٤٨٪ في سنة ٢٠٥٠ وفقاً للدراسات الإسرائيلية المتعددة، وبحسب معدلات النمو الحالية للمدينة، وفي حالة عدم تدخل مؤسسات الاحتلال الرسمية. أما الأمر الأسوأ بالنسبة إلى الاحتلال من معدلات النمو فهو أن القرى والمدن الفلسطينية المحيطة بالقدس نمت في اتجاه مركز المدينة، وأوجدت نقاط تواصل بين هذه المدن والقرى والأحياء من ناحية، ومع المدينة من ناحية أخرى. فعلى سبيل المثال، نمت مدن بيت لحم وبيت جالا والخضر بحيث اتصلت عمرانياً بعضها ببعض، مشكلة حزاماً عمرانياً فلسطينياً متواصلاً جنوبي القدس، كما نمت، في الوقت نفسه، الأحياء الشمالية لهذه المدن في اتجاه الشمال، أي في اتجاه القدس، الأمر الذي أوجد تواصلاً عمرانياً فلسطينياً بين القدس وهذه المدن.

مثال آخر هو قرينا أبو ديس والعيزرية اللتان نمتا الواحدة في اتجاه الأخرى، وكذلك في اتجاه الحزام الجنوبي الفلسطيني المذكور أعلاه في المثال السابق عن طريق منطقة السواحة جنوبي القريتين. وقد بدأ نموها في الوقت نفسه، شمالاً نحو قريتي الزعيم وحزما، وغرباً في اتجاه القدس من خلال الاتصال العمراني بمنطقة الطور ورأس العمود والسواحة الغربية. وكاد هذا النمو يشكل حزاماً عمرانياً فلسطينياً يحيط بالقدس جنوب شرق، ويتصل بالحزام الجنوبي للمدينة والمتمثل في مدن بيت لحم وبيت جالا والخضر.

وهناك حزام آخر في الشمال يتشكل من قرى الرام وجبع وكفرعقاب وقلندية وبيير نبالا والجيب والجديرة وبيت حنينا كحزام واحد يحيط بشمالي القدس وينمو في اتجاه جنوبيها، كما ثمة حزام شرقي آخر من قرى عناتا وحزما ومخيم شعفاط. كذلك نمت مستعمرات القدس عشوائياً وبشكل مقصود حول المدينة، لكنها لم تحقق معدلات نمو عالية مثلما كانت دولة الاحتلال تتمنى، كما أنها بقيت بعيدة عن مركز المدينة بمعنى أنها لم تشكل تواصلاً عمرانياً يهودياً بالمدينة على الرغم من أن مئات الكيلومترات من الشوارع الاستيطانية جرى

إنشاؤها لربط هذه المستعمرات بالمركز. هذه المقدمة عن النمو الفلسطيني والنمو الاستيطاني ومعدلات النمو وشكله ضرورية لشرح الدور المتوقع للجدار، وكذلك آثاره في منطقة القدس، والتي يمكن حصرها في النقاط التالية:

١ - سيضم هذا الجدار الذي سيبلغ طوله المتوقع ١٨١ كم، المستعمرات المتاخمة للقدس بشكل كامل إلى المدينة وبلدية الاحتلال كي يشكل معاً مصطلحاً جديداً هو القدس اليهودية الكبرى. وهذا الضم سيقلل حجم ما يُعرف بالقدس الشرقية أو الأحياء الفلسطينية بالقدس إلى ٥٪ فقط من إجمالي مساحة الأراضي الخاضعة لبلدية القدس، والتي ستبلغ مساحتها ٢٧٣ كم^٢ تقريباً.

٢ - الأثر الثاني المباشر للجدار هو ضم ثلاثة تجمعات استيطانية إلى حدود بلدية القدس: الأول، تجمّع جبعون شمالي القدس بمساحة تقدر بـ ١٣ كم^٢، ونحو ١٢,٠٠٠ مستوطن؛ الثاني، شرقي المدينة ويسمى تجمّع معاليه أدوميم بمساحة ٦١ كم^٢، و٣٣,٠٠٠ مستوطن؛ الثالث، جنوبي غربي المدينة، غربي بيت لحم، ويسمى تجمّع عتسيون بمساحة ٧١ كم^٢، و٤٣,٠٠٠ مستوطن. كل ذلك عدا المستعمرات والمستوطنين داخل الحدود القديمة للبلدية والبالغ عددهم ١٢٣,٠٠٠ مستوطن، الأمر الذي سيزيد، تلقائياً ومباشرة، عدد اليهود في القدس في مقابل الفلسطينيين.

٣ - الأثر الثالث المباشر للجدار هو عزل أحياء فلسطينية ضمن حدود بلدية القدس خارج المدينة مثل كفرعقاب ومخيم قلندية والرام ومخيم شعفاط وأجزاء من أحياء أبو ديس والعيزرية والسواحة، عدا عزل قرى القدس مثل قرى شمالي غربي القدس وشماليها وشرقيها. ومجموع هذه التجمعات سيبلغ ٢٢ تجمعاً فلسطينياً بتعداد سكاني قُدّر بـ ٢٢٥,٠٠٠ فلسطيني نصفهم تقريباً من حملة هويات القدس، الأمر الذي سيخفف، تلقائياً ومباشرة، عدد الفلسطينيين في القدس في مقابل اليهود.

٤ - تضيف النقاط الثلاث السابقة أثراً رابعاً

ومُنَع الفلسطينيين من استثمارها بأي طريقة. وللتوضيح، فإن إدارة أوباما تطالب بوقف بناء مشروع ال E-1، وهو مخطط توسيع مستعمرة معاليه أدوميم، ويؤيدها في هذا موقف أوروبي وأممي، لكن بناء الجدار في تلك المنطقة صادر فعلاً جميع الأراضي المخصصة لهذا المشروع سواء بُني المشروع أو لم يُبْنَ، وهذا يعني أن حكومة الاحتلال تستطيع ادعاء الموافقة، مؤقتاً، على الطلب الأميركي الذي لا يذكر الجدار بأي شكل من الأشكال، مع إبقائها في الوقت نفسه السيطرة على جميع الأراضي المخصصة لهذا المشروع، والتي صادرها الجدار، إلى أن يحين موقف سياسي أميركي أفضل إسرائيليّاً، ويقبل أو يتغاضى عن التوسع الاستيطاني.

٨ - النقاط السابقة معاً ستحقق لمشروع تهويد القدس ميزة هي أنه لو بقي النمو على معدلاته الحالية من دون أي تدخل إسرائيلي، وهذا مستحيل، فإن المستقبل القريب سيشهد تغيراً في معدلات النمو لمصلحة المستوطنين، ذلك بأن الضغط سيزداد على الأحياء الفلسطينية المقلصة في القدس، الأمر الذي سينجم عنه حركة نزوح مقدسية من جانب الأجيال المقبلة، أو الأزواج الشابة الجديدة، إلى الأطراف، على غرار ما يمكن ملاحظته في منطقة كفرعقاب ومخيم قلندية ومخيم شعفاط، وخصوصاً مع الارتفاع المخيف في إيجارات الشقق السكنية في القدس، وضعف الدخل وإمكانات الاستثمار في القدس، عدا إجراءات الاحتلال وسياساته. وفي المقابل تم تخصيص آلاف الدونمات للتوسع الاستيطاني حتى غدت مستعمرة مثل معاليه أدوميم تسيطر على أراضٍ تمثل ضعف مساحة تل أبيب العاصمة المالية للاحتلال، فضلاً عن إطلاق مشاريع تشجع الاستيطان، مثل مشروع الاستيطان السياحي، ومشروع العلامات التجارية الدولية، ونقل الإدارات الرئيسية لعدد من المؤسسات الحكومية والرسمية الإسرائيلية إلى القدس، وغيرها. ويأتي هذا المشروع ضمن الاستهداف الممنهج لتهويد المدينة والقضاء على فلسطينيتها في الوقت

مباشراً للجدار هو مزيد من التقليل في مساحة الأراضي المخصصة للبناء الفلسطيني في القدس في مقابل مضاعفة المساحة المخصصة للتوسع الاستيطاني اليهودي في المدينة، هذا عدا الإجراءات والسياسات الاحتلالية المتعددة في المدينة لتقليل هذه النسبة.

٥ - الأثر المباشر الخامس هو منع التواصل

العمراني بين الأحزمة الفلسطينية التي جرى الحديث سابقاً عن أنها ستشكل في المستقبل حزاماً واحداً يحيط بالمدينة ويعزل المستعمرات الموجودة حول القدس عنها. فعلى سبيل المثال، إن التواصل بين حزام العيزرية وأبو ديس، وحزام عناتا ومخيم شعفاط، وحزام جبع والرام، سيعزل تجمّع معاليه أدوميم بأكمله عن القدس، بينما يعزل حزام الرام وبير نبالا وقرى غربي القدس، مستعمرتي غفعون وعطروت الصناعية ومطار قلندية عن القدس.

٦ - الأثر السادس هو أثر غير مباشر ويقاس على المدى البعيد، فالجدار لم يوجد عائقاً مادياً يمنع تواصل القرى والأحياء الفلسطينية مع القدس فحسب، بل حدّ أيضاً من إمكان نمو هذه التجمعات من ثلاثة جوانب فاسحاً في المجال أمامها لتنمو في اتجاه واحد فقط بعيد عن مركز المدينة، في حين أنه حدد مسار نمو المستعمرات نحو مركز القدس، أي البلدة القديمة. فالجدار يحد مستعمرة معاليه أدوميم من الشمال والشرق والجنوب ويترك منفذاً وحيداً لها كي تنمو، وهو في اتجاه الغرب، أي القدس، كما أنه أحاط تجمّع جبعون من الشرق والشمال والغرب تاركاً له منفذاً وحيداً هو نحو الجنوب، أي القدس.

٧ - لقد صادر مسار الجدار آلاف الدونمات من

الأراضي الفلسطينية لضمان نمو المستعمرات بغض النظر عن الموقف الدولي أكان مؤيداً للاستيطان أم متغاضياً عنه كما كانت الحال أيام إدارة بوش، أم يدعي رفضه كما هي الحال في إدارة أوباما حالياً. وبغض النظر أيضاً عن قدرة الاحتلال السياسية أو المالية على بناء المستعمرات أو تجميدها، فإن الأراضي جرت مصادرتها فعلاً عن طريق الجدار،

الذي تعاني الحركة الوطنية ضعفاً وتفككاً غير مسبوقين، علاوة على الضغوطات والإملاءات الهائلة على السلطة التي أصبح وجودها مرهوناً بالدعم الدولي الذي يكبلها، ولذلك فإن مسؤولية المواجهة الأكبر تقع على عاتق الشعب الفلسطيني عامة والمقدسي خاصة، وعلى القوى المناصرة للقضية الفلسطينية. ومع ذلك، فإن هذا لا يعني إعفاء السلطة ومنظمة التحرير والقوى الوطنية، ولا

الدول العربية والإسلامية، من مسؤولياتها تجاه القدس.

إن الحديث عن مواجهة الجدار ومقاومة سياسة التهجير يبدأ من تعزيز صمود السكان والاستثمار في الإنسان المقدسي، كما أن مقاومة الجدار لا تنفصل بأي حال عن مقاومة مشروع الاحتلال الاستعماري الإحلالي. ■

يصدر قريباً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

أبحاث تاريخية تكريماً للأستاذ الدكتور بطرس أبو منه

إعداد وتحرير

عطا الله قبطي؛ جوني منصور؛ مصطفى عباسي

يصدر قريباً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

تاريخ فلسطين في طوابع البريد

مجموعة

نادر خيرى الدين أبو الجبين

نسخة جديدة منقحة ومزودة